أسس المنهج الوصفي في كتاب الخصائص لابن جنّي

د/ بوزيد ساسي هادف
كلية الحقوق والآداب والعلوم الاجتماعية
جامعة 08 ماي 1945– قالمـــة.

الملخّــص:

يقوم المنهج الوصفي على دراسة لغة محددة في مكان وزمان محددين دراسة وصفية تقريرية موضوعية بعيدة عن المعيارية ودون اعتبار للخطأ أو الصواب فيها، فهو منهج يسجل الواقع اللغوي ــ كما هو لا كما يجب أن يكون ــ تسجيلا أمينا، وذلك للوقوف على خصائص نظام اللغة المنشودة بمختلف مستوياته .

وإذا كانت بوادر هذا النوع من المناهج اللغوية لم تظهر إلا في أواخر القرن التاسع عشر على أيدي أبي اللسانيات الحديثة (فرديناند دو سوسير Ferdinand De Saussure (1857م ــ 1913م)، عندما أرسى قواعده وأسسه في محاضراته القيمة التي كان يلقيها على طلبته، والتي جمعت بعد وفاته بثلاث سنوات في كتيب صغير الحجم عظيم الفائدة بعنوان (محاضرات في اللسانيات العامة)، فإن علماء اللغة العربية الأوائل ــ بصفة عامةــ كانوا سباقين إلى توظيف أسس ودعائم المنهج الوصفي قبل الغربيين بمئات السنين، ولا غرو في ذلك، لأن المنهج اللغوي عند العرب ــ عكس ما هو عليه عند الغرب ــ بدأ وصفيا وانتهى معياريا، فالمدقق والمتمعن في كتاب (الخصائص) لابن جني (ت 392هــ) يجد أسس المنهج الوصفي ماثلة للعيان، من : سماع، وتصنيف، واستقراء، وتجريد، واعتماد على الجانب المنطوق من اللغة، والتمييز بين اللغة والكلام، وغيرها من الأسس الأخرى .

Synthèse :

La méthode descriptive se base sur l'etude d'une langue précisée dans l'espace et le temps ; sur une étude descriptive et constative et objective ; loin d'énormes ; et sans prendre en concederation l'erreur et la justesse ; c'est une méthode qui enregistre la réalité linguistique, comme elle est ; et non comme elle doit l'être, un enregistrement sur ; et celle ; Pour atteindre les caractiristiques de la langue recherchée avec ses différents aspects.

Si les preuves de ce genre de méthode linguistique n'apparaissent que en fin de 19eme siècle grâce au père de la linguistique moderne (F. de Saussure (1857 – 1913) lorsqu il a posé ses règles et ses bases dans ses coferences devant ses étudiants, et qui a assemblée trois ans après sa mort dans une brochure de grande valeur sous le titre (Cours de la linguistique générale).

Les premiers savants de la langue arabe, d une manière générale étaient les pionniers dans l'emploi des bases d la methodologie descriptive bien avant les occidentaux de plusieurs centaines d'années ; c est l évident ; car la méthode linguistique chez les arabes ; contrairement chez l 'occidentaux a débuté descriptive et a fin pour devenir prescriptif ;ce qui est précis dans le livre (EL KHASSAIS) d Ibn JENI (mort en 392) ; trouve l essentiel de la méthode d'éscriptive visuellement(plein les yeux) de (audition ; classification ;induction ; et le secours de la logique ; et la différence entre la langue et la parole ; entre autres ….

إذا كانت بوادر المنهج الوصفي عند الغربيين لم تظهر إلا في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين على أيدي العالم اللساني السويسري فرديناند دو سوسير (1857 ــ 1913م) الذي يعود إليه الفضل في إرساء قواعده، وبيان منافعه في البحث اللساني الحديث وذلك في تلك المحاضرات التي كان يلقيها على طلبته، والتي جمعت فيما بعد من طرف بعض طلبته النجباء، وذلك بعد وفاته بثلاث سنوات (1916م)، في كتيب صغير الحجم، عظيم الفائدة، موسوم بـــ (**محاضرات في علم اللسانيات العام**)، لخص خلاله أسس المنهج الوصفي عندما صرح قائلا : " **إن موضوع الدراسة اللغوية الوحيد والحقيقي هو اللغة الذي ينظر إليها كواقع قائم بذاته ويبحث فيها لذاتها** "[1]، وهذا يعني أن المنهج الوصفي يدرس اللغة الإنسانية بغض النظر عن صاحبها، وعن مستواها، إذ لا يقتصر على المستوى الفصيح منها، بل قد يتعدى ذلك إلى دراسة الجانب غير الفصيح منها، كاللهجات المختلفة، سواء كانت مستعملة أو مهملة، مستحسنة أو مذمومة . فهو يدرسها كما هي في الاستعمال والواقع اللغوي، وليست كما يجب أن تكون، عن طريق فرض قواعد ومعايير يتخذها الباحث اللغوي سلاحا يحكم من خلاله عن تلك اللغة المدروسة بالخطأ والصواب، والذي غالبا ما يجعله يتدخل لتصحيح ذلك الخطأ، وتقويم ذلك الاعوجاج، مما يجعله يحيد عن العلمية والموضوعية اللتان تسمان المنهج الوصفي، وتعدان من الدعائم الأساسية التي أنبنى عليها المنهج الوصفي.

فالمنهج الوصفي: " **يعنى بدراسة الاستعمال اللغوي في عمومه عند شخص بعينه في زمان بعينه ومكان بعينه** "[2]. أو هو : " **المنهج الذي يقوم على تقرير ما هو واقع**[3]. فالوظيفة الأولى لهذا المنهج ــ كما يدل عيه اسمه ــ هي أن يصف. ولا تعدو وظيفته تسجيل الواقع اللغوي كما هو، من دون التورط في مسائل الصواب والخطأ، فهو ــ إذن ــ منهج يبحث عن الحقيقة لذاتها، كما يتخذ في الوقت نفسه سبيلا موضوعيا للخوض في مختلف المجالات .

إن علم اللغة الوصفي (**المنهج الوصفي**) يتناول بالدراسة العلمية لغة واحدة بمستويات استخدامها، أو مستوى واحدا من مستويات استخدام لغة (لهجة) في زمن

معين وبيئة أو مكان معين، فيتناول بالدراسة مستويات هذه اللغة أو اللهجة المختلفة، أي في نواحي أصواتها ومقاطعها وأبنيتها ودلالتها وتراكيبها وألفاظها، أو يتناول جانبا واحدا من هذه المستويات، كأن يدرس النظام الصرفي في بنية اللفظ في فصحى الجاهلية، أو النظام الصوتي في فصحى القرن الرابع الهجري في الوطن العربي، أو نظام الجملة في لهجة الكوفة الحديثة، أو النظام الصوتي في لهجة عمان الحديثة، أو جملة الاستفهام في النثر

العربي في العصر العباسي الثاني، أو بنية الأفعال في لهجة اليمن، أو أدوات النفي في اللهجات العربية الحديثة، دون خلط بين المستويات اللغوية، أو المراحل الزمنية أو البيئية المكانية أو الاجتماعية، فهذه الدراسات "**لا تعرض علينا سوى الواقع اللغوي مصنفا دون تدخل من الباحث بتفسير ظاهرة، أو تعليل لاتجاه لغوي هنا أو هناك** "[4].

وتتضح لنا بعض أسس المنهج الوصفي في كتاب الخصائص لابن جني في النواحي الآتية :

1 ــ كيفية جمع المادة اللغوية وروايتها : التي اعتمدت بصورة أكثر في تحقيق ذلك على المنهج السماعي، ويعرف السماع بأنه " **الأخذ المباشر للمادة اللغوية عن الناطقين بها** "[5] وهو بهذا يعد من الركائز الأساسية التي يقوم عليها المنهج الوصفي في البحث اللغوي، كما يعد في الوقت نفسه الأساس الأول الذي دونت بموجبه اللغة ويتجلى لنا ذلك بوضوح في مختلف المواد والعناصر اللغوية المجموعة، سواء أكانت هذه العناصر المجموعة قرآنا كريما أو حديثا شريفا، أو كلام العرب شعرا ونثرا . ونظرا لهذه الأهمية التي يحظى بها السماع نراه يأتي في مقدمة أسس المنهج الوصفي الأخرى لكونه الأصل الذي تدور في رحابه بقية الأسس، ذلك لان الخطوات التالية للبحث، إنما تكون بعد جمع المادة التي تجري ملاحظتها ودرسها[6]. ولقد أدرك ابن جني ــ شأنه في ذلك شأن علماء العربية ــ أنه لا بد لكل دراسة من مادة تتخذ أساسا للنظر فيها وتدبرها مع الاستقراء والتجريد والتقعيد، فلم يجد أنسب من اللغة المنطوقة Spoken Laguage ولا يتسنى له ذلك إلا بالأخذ المباشر عن منبع البوادي الصافي، إذ نراه يضع ــ شأنه في

ذلك شأن متقدميه ــ حدودا مكانية وزمانية وجنسية للمادة اللغوية المنقولة، والتي يصح استقراؤها واستنباط القواعد منها، إذ نراه يؤكد على ما يلي :

أ ــ وحدة المكان : تعد وحدة المكان من الركائز الرئيسة التي يرتكز عليها المنهج الوصفي الحديث في دراسة الخصائص اللغوية، " **إذ يتخذ من وحدة المكان شرطا أساسيا في دراسة خصائص اللغة، ولا يعترف بتعدد الأماكن المجموعة منها النصوص اللغوية** "[7]، لأن في ذلك تيسير في أداء المهمة على أكمل وجه، ووصول إلى نتائج أدق وأضمن إذ "**أن التقيد بوحدة المكان يجعل الباحث اللغوي على بينة من إبراز الخصائص الموحدة للغة** "[8]. وهذا ما فطن إليه ابن جني حين ذكر أن اللغويين الذين أخذوا على عاتقهم مهمة جمع اللغة العربية وتدوينها، كانوا يرون أن أهل البادية هم الوجهة الصحيحة التي توصلهم إلى تنفيذ مهمتهم وتأديتها على أكمل وجه، لكونهم يتمتعون بسليقة صافية، ولغة صحيحة فصيحة، تنساب من أفواههم انسيابا دون تكلف ولا تصنع، وخاصة تلك القبائل التي كانت تسكن أواسط شبه الجزيرة العربية، لبعدهم عن المؤثرات الأعجمية، وعن كل ما يكدر صفو لغتهم، ويجعل الفساد واللحن يتغلغل إلى ألسنتهم، هذا بالإضافة إلى ما رأوه من فساد قد أصاب ألسنة أهل الحضر جراء اختلاطهم بغير العرب، إذ يقول معللا أخذه اللغة عن أهل الوبر وعزوفه عن الأخذ عن أهل المدر : " **علة امتناع ذلك ما عرض للغات الحاضرة وأهل المدر من الاختلال والفساد والخطل** "[9]، فلغة أهل الحضر أكثر عرضة للفساد لكون الحواضر بوابة مفتوحة على مصراعيها لدخول مختلف الأجناس، واختلاط بعضها ببعض مما يؤدي إلى فساد السلائق، ولهذا يجب العزوف عنها، والارتواء من نبع البوادي الصافي .

ثم نراه يوضح لنا الأسباب التي جعلته يشافه أهل البوادي ويأخذ عنهم ما جادت به قرائحهم دون غيرهم من سكان أهل الحضر، فالمسألة ليست مسألة تفاضل تعصبي ذاتي لأهل البادية دون الحضر، بقدر ما هو تفاضل علمي موضوعي، إذ يقول : " **لو علم أن أهل مدينة باقون على فصاحتهم، ولم يعترض بشيء من الفساد للغتهم لوجب الأخذ عنهم، كما يؤخذ أهل الوبر، وأهل الوبر ما شاع في لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة**

وخبالها، وانتقاض عادة الفصاحة وانتشارها لوجب رفض لغتها، وترك تلقي ما يرد عنها "[10] .

فابن جني من خلال قوله هذا نراه يجسد مبدأ من مبادئ المنهج الوصفي، وذلك عن طريق نبذ الذاتية التي كثيرا ما تخرج صاحبها عن جادة الصواب، وتحري الدقة والموضوعية التي غالبا ما تكون نتائجها منطقية . فابن جني لا يهمه المنبع الذي يرتوي منه، إن كان بدويا أو حضريا، بقدر ما يهمه ما تجود به ألسنة هؤلاء وأولئك من كلام عذب فصيح؛ مسيج بأسلاك شائكة تمنع الفساد واللحن من اقتحامها، بل حتى الاقتراب منها في أكثر الأحيان .

وعلى الرغم من أن ابن جني وغيره من اللغويين العرب الأوائل ــ على تقادم العهد بهم ــ سعوا جاهدين ــ رغم افتقارهم لوسائل البحث اللغوي الحديثة ــ متسلحين في ذلك بالذوق السليم والملاحظة الصائبة، إلى تحديد المكان الأمثل الذي تؤخذ منه اللغة الفصيحة الصافية، إذ نراهم يركزون في جمعهم للمادة اللغوية على تلقفها من أفواه الأعراب الأقحاح الخلص المنعزلين في البوادي العربية، ذلك لأن السليقة اللغوية بقيت لدى أولئك البدو المنعزلين في تلك البوادي حتى القرن الرابع الهجري، والدليل على صحة ذلك تلك الروايات التي كان يرويها ابن جني (ت 392هـ) في كتابه الخصائص حول تلك اللقاءات المتكررة التي كانت تحصل له مع الأعراب الموثوق بفصاحتهم، وفيهم من يصعب عليه النطق بالكلام ملحونا لغلبة السليقة عليه[11] . رغم كل هذا نراهم يتعرضون لهجمات شرسة تحاول تقويض تلك الأعمال الجليلة التي بذلها علماء اللغة العربية الأوائل، بحجة اتساع الرقعة الجغرافية للمكان الذي اتخذوه عينة لجمع المادة اللغوية، إذ في نظرهم " **ليست هناك لغة تتوزع على إقليم واسع، أو مساحة جغرافية معقولة، من غير أن تظهر فيه التنوعات اللهجية** "[12] . بل ذهب أحدهم إلى أبعد من ذلك عندما نفى توافر وحدة الموضوع الذي اتجهت إليه تلك الدراسات اللغوية العربية في عصورها الأولى، وحجته في ذلك عدم اقتصار تلك الدراسات على لهجة بعينها، بل شملت عدة لهجات لقبائل منتشرة هنا وهناك في ربوع شبه الجزيرة العربية الفسيحة، إذ

لم يكتفوا : " **بدراسة لهجة واحدة وإنما عمدوا إلى دراسة لهجات متعددة تختلف من نواح كثيرة، وبذلك انعدمت وحدة الموضوع الذي اتجهت إليه الدراسة** "[13].

إن تلك الأسهم النقدية ــ وغيرها كثيرة ــ أرادت أن تصيب تلك الجهود اللغوية التي بذلها علماء اللغة العربية الأوائل في الصميم لكي تفرغها من محتواها، جاهلين أو متجاهلين أن اللغة العربية ــ لغة القرآن الكريم ــ تختلف عن خصوصيات اللغات الأجنبية الأخرى . هذا الاختلاف وهذه الخصوصية هي التي طبعت المنهج الذي اتبعه اللغويون العرب الأوائل التي تتمثل في كونهم درسوا لغة " **ثابتة الأصول، راسخة القيم، موفورة النصوص السليمة خلال تاريخها الطويل، وهي تمثل لغة مجتمع واحد ذي تقاليد وأعراف وقيم دينية وتراثية واحدة، وهذه اللغة قد ارتبطت بشكل جذري وصميمي بالمجتمع الإسلامي منذ أقدم عصوره حتى اليوم** "[14]. وهذا ما تفتقر إليه اللغات الأجنبية التي نمت وترعرعت في أحضانها المناهج اللسانية الحديثة، إذ سرعان ما يصيبها التطور والتغير، عكس اللغة العربية التي لها القدرة على الثبات والاستقرار لفترات زمنية أطول.

ب ــ وحدة الزمان : لم يخرج ابن جني عن القاعدة التي حددها الأسلاف لعصور الاحتجاج كمعيار صحيح لرواية اللغة وأخذها من أفواه الثقات، فهي تنتهي عند القرن الثاني الهجري بالنسبة لسكان الحواضر، وتستمر إلى القرن الرابع الهجري عند سكان البوادي . وسواء كان الأخذ مباشرا عن طريق السماع من أفواه الأعراب الأقحاح الخلص، كما هو الحال في المرحلة الأولى من مراحل الرواية اللغوية ، يوم كان اللغويون يتجشمون مشاق السفر ليهاجروا إلى البوادي، ويتحملون شظف العيش بإقامتهم بين أهالي البدو لفترات زمنية، قد تطول وقد تقصر، أو كان الأخذ غير مباشر كمشافهة من شافه الأعراب الأقحاح، كما هو الحال في المرحلة الأخيرة من مراحل الرواية اللغوية، يوم حدثت الهجرة العكسية، إذ لما رأى أهل البادية أن لغتهم أصبحت سلعة رائجة، والطلب عليها كثير، نزلوا إلى الحواضر سعيا للتكسب، فطاب لهم المقام، فاستقروا هناك. وبمرور الزمن شاع الاضطراب على ألسنتهم، وتسرب اللحن إليها، فتزعزعت ثقتهم، وحل الشك في فصاحتهم محل اليقين، فأصبحوا عرضة لامتحانات واختبارات متعددة قبل الوثوق بهم، والاطمئنان إليهم. يقول أبو الفتح مؤكدا فساد السلائق

في عصره : " **لا نكاد نرى بدويا فصيحا، وإن نحن أنسنا منه فصاحة في كلامه لم نكن نعدم ما يفسد ذلك ويقدح فيه، وينال ويغض منه** "[15]. فهذا ما جعل ابن جني الذي عاش في القرن الرابع الهجري، وعايش آخر مراحل الرواية اللغوية، ورأى تفشي اللحن في ألسنة الأعراب أنفسهم، فتوجس خيفة، واتخذ الحيطة والحذر سلاحا، " **فسار على نهج سلفه من اللغويين في الرواية عن الأعراب الفصحاء والثقاة الذين لم تفسد لغتهم، ولكنه كان حصيفا دقيقا في النقل، فلم يقبل الرواية على النهج السابق المعروف بشكل مطلق، بل كان لا يأخذ عن بدوي إلا بعد أن يمتحنه ويتثبت من أمره وصدق نحيزته** "[16] .

إن ابن جني بعبقريته الفذة، وذكائه الوقاد، استطاع أن يرسم طريقا سليما، ومنهاجا منيرا يستضاء به في كشف الفصيح من غيره، فهو لا ينخدع بالبدوي فيحكم له بالفصاحة لأول وهلة عندما يراه ينطق بيانا، بل يحاول جاهدا التأكد من ذلك، عن طريق إجراء اختبارات مركزة، تكشف الصحيح من الزائف، " **فلقد طرأ على ابن جني أحد من يدعي هذه الفصاحة، فميز كلامه أول الأمر تمييزا حسن موقعه في نفسه، إلى أن أنشده يوما شعرا له يقول في بعض قوافيه (أشأؤها وأدأؤها)، جمع بين الهمزتين، واستأنف من ذلك ما لا أصل له، ولا قياس يسوغه، وأبدل إلى الهمز حرفا لا حظ في الهمز له، مع أنه " لو التقت همزتان عن وجوب صنعة للزم تغير إحداهما، فكيف أن يقلب إلى الهمز قلبا ساذجا عن غير صنعة ما لا حظ له في الهمز، ثم يحقق الهمزتين جميعا ؟ هذا ما لا يبحه قياس، ولا ورد بمثله سماع، وما كانت هذه سبيله وجب اطراحه والتوقف عن لغة من أورده** "[17] . إلا أن ابن جني لم يمنع الأخذ عن هؤلاء الأعراب، لكنه اشترط الوثوق بفصاحتهم، إذ يقول :: " **فينبغي أن يستوحش من الأخذ عن كل أحد إلا أن تقوى لغته، وتشيع فصاحته، وقد قال الفراء في بعض كلامه إلا أن تسمع شيئا من بدوي فصيح فتقوله** "[18]، ولم تكن هذه المرونة والبعد عن الحرفية والآلية في تطبيق المنهج جديدين، فقد كان الوثوق من سلامة لغة المجتمع، وعدم تطرق الفساد هو الضابط في التصنيف المكاني والزماني .

إن تحديد ابن جني للبيئة المكانية والزمانية التي يصح أخذ المادة اللغوية منهما ــ شأنه في ذلك شأن النحاة القدامى ــ جعل المحدثين يتهمون صنيعه هذا بالقصور،

لكونه قصر اهتمامه على النصوص اللغوية المنشودة، والمحددة مكانيا وزمانيا، مهملا جانبا مهما من نصوص اللغة العربية التي تجري خارج الإطار المحدد. فالقواعد التي تستنبط من تلك النصوص المحددة ــ في رأيهم ــ لا تمثل قواعد الكلام العربي في مختلف بيئاته أصدق تمثيل، يقول الدكتور محمد كامل حسين في هذا الصدد : " **ونحن لا نقرهم على تحديد الصحيح من اللغة، مكانا بالجزيرة العربية، أو زمانا بما قبل عصر التدوين، ... ولا نقرهم على أن كل ما ورد في عصر بعينه صحيح، فأكثره مضطرب ومتناقض، والإبقاء عليه عبث، وعلى أن كل ما لم يرد خطأ . فهذا قالب من حديد وضع اللغويون لغتنا فيه لا يسمح المحدثون لأنفسهم أن يتقيدوا به** "[19] . من خلال هذا النص يتضح لنا أن قائله ومن حذا حذوه ــ وهم كثر ــ يكونون قد نسوا أو تناسوا الهدف والغاية التي من أجلهما نشأت الدراسات اللغوية العربية بصفة عامة، والتقعيد اللغوي على وجه الخصوص . فالغاية من هذه النشأة تتعدى الإحاطة بكل قواعد اللغة العربية العامة المستعملة في مختلف شؤون الحياة، والتي تختلف مظاهرها باختلاف الأمكنة والأزمنة والمصادر البشرية، إلى غاية نبيلة وهدف أسمى، هو فهم القرآن الكريم والمحافظة عليه من أخطار اللحن التي بدأت تحدق به من كل جانب . فابن جني ــ ومن نهج نهجه من القدامى ــ كانوا يهدفون من وراء انتخابهم اللغة العربية الفصحى مادة للتقعيد اللغوي، إلى وضع قواعد تصلح لفهم القرآن الكريم، وتتماشى مع إعجازه اللغوي والبلاغي .

2 ــ بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة : لقد أولت الدراسات اللسانية الحديثة اللغة المنطوقة (**spoken language**) اهتماما كبيرا، وسخرت منهجها الوصفي في البحث اللغوي لاتخاذها ــ في المقام الأول ــ مادة لبحثه، أما اللغة المكتوبة (**written language**)، فتأتي في الدرجة الثانية من الاهتمام، إذ ما هي إلا عبارة عن محاولة لتمثيل وتصوير الجانب المنطوق منها، وغالبا ما نراها تخفق في تمثيله تمثيلا صادقا . وهذا ما فطن إليه أبو الفتح عندما أولى اهتماما كبيرا إلى الجانب المنطوق منها، سواء أكان ذلك في مفهومه للغة، عندما ركز في تعريفه لها على طابعها الصوتي قائلا : " **أما حدها :فإنها أصوات** ..."[20]، أو كما يتجلى لنا أيضا في معظم دراساته وأبحاثه اللغوية التي يشير فيها إلى دور العناصر غير اللغوية في تحديد المعنى، ويقصد بها تلك الملامح

شبه اللغوية المصاحبة لنطق المتكلم مثل النبر والتنغيم ومعدل الأداء الكلامي، إلى جانب الحركات والتعبيرات الجسمية المصاحبة .

ومن بين العناصر غير اللغوية التي عرض لها أبو الفتح، والتي لها تعلق كبير بالجانب اللغوي المنطوق، لما لها من دور كبير في توضيح المعاني وبيانها، والتي قد يقف القارئ إزاءها في نص مكتوب حائرا تائها، فيتخذ الدلالات المعجمية مطية لفك طلاسمها، وتبديد حيرته، فيزداد حيرة وتيها، لما تتصف به مثل هذا النوع من الدلالات العائمة التي تفتقر إلى الدقة ،والقابلة للتأويل، " **إذ يرى علماء المعاجم أن أبرز خصيصة من خصائص المعنى المعجمي أنه عام ومتعدد غير ثابت**[21] .. مما يصعب الوقوف على تحديد المعاني بدقة . وهذا ما فطن إليه " ابن جني " عندما راح يؤكد على ضرورة اتصال اللغويين بالرواة الثقات اتصالا مباشرا، باعتبارهم المعجم الحي الذي يسعف السائل عن تفسير بعض المعاني التي ترتبط ارتباطا وثيقا بدلالتها الأصلية التي اصطلح عليها أو ل الأمر، والتي قد يلعب فيها الحضور والمشاهدة دورا فعالا لفك مستغلقها، يقول أبو الفتح : " **ولهذا الموضع نفسه ما توقف أبو بكر عن كثير مما أسرع إليه أبو إسحاق من ارتكاب طريق الاشتقاق، واحتج أبو بكر عليه بأنه لا يؤمن أن تكون هذه الألفاظ المنقولة إلينا قد كانت لها أسباب لم نشاهدها، ولم ندر ما حديثها، ومثل له بقولهم (رفع عقيرته) إذا رفع صوته لبعض الأمر جدا، وإنما هو أن رجلا قطعت إحدى رجليه فرفعها ووضعها على الأخرى، ثم نادى وصرخ بأعلى صوته، فقال الناس : رفع عقيرته، أي رجله المعقورة . قال أبو بكر : فقال أبو إسحاق : لست أدفع هذا، ولذلك قال سيبويه في نحو من هذا، أو لأن الأول وصل إليه علم لم يصل إلى الآخر، يعني ما نحن عليه من مشاهدة الأحوال الأوائل**"[22].

يتضح من خلال النص السابق أن ابن جني يولي اهتماما كبيرا بالأحوال الأوائل والظروف المحيطة بالكلام لما لها من دخل كبير في تحديد معاني الألفاظ. ونظرا للأهمية الكبرى التي تحظى بها الظروف المحيطة بالكلام، وإيمانا منه بمقولة " **رب إشارة أبلغ من عبارة**" نراه يؤكد في أكثر من موضع على ضرورة الحضور والمشاهدة لمعرفة الأحوال المحيطة بالمادة اللغوية المجموعة لكي يسهل فهمها واستقراؤها واستنباط

قواعدها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، فيقول : " **فليث شعري، إذا شاهد أبو عمرو، وابن أبي إسحاق، ويونس، وعيسى بن عمر، والخليل، وسيبويه، وأبو الحسن، وأبو زيد، وخلف الأحمر، والأصمعي، ومن في الطبقة والوقت من علماء البلدين ــ وجوه العرب فيما تتعاطاه من كلامها، وتقصد لها من أغراضها، ألا تستفيد من بتلك المشاهدة وذلك الحضور ما لا تؤديه الحكايات، ولا تضبطه الروايات، فتضطر إلى قصود العرب، وغوامض ما في أنفسها، حتى لو حلف منهم حالف على غرض دلته عليه إشارة لا عبارة، لكان عند نفسه، وعند جميع من يحضر حاله صادقا فيه، غير متهم الرأي والنحيزة والعقل، فهذا حديث ما غاب عنا فلم ينقل إلينا، وكأنه حاضر معنا، مناج لنا**[23].

وهذه الدعوة تنم عن وعي ابن جني بضرورة معايشة علماء اللغة لفرسان الكلام من العرب، ومشاهدة أحوالهم ووجوههم وحركات أيديهم وأعينهم، وغير ذلك من الإشارات التي قد تفصح عن معان لا تتضمنها العبارات، ويعجز عن نقلها وتصويرها الرواة الإخباريون، فالمشاعر التي يستقرؤها ذلك العالم والأغراض التي يستنبطها لا تتوافر له إلا إذا عاش تلك الظروف وشاهد تلك الأحوال، واستوعب من إشارتهم ما لو " **حلف منهم حالف على غرض دلته عليه إشارة لا عبارة، لكن عند نفسه، وعند جميع من يحضر حاله صادقا فيه ...**"[24] . وهذا يشهد لابن جني بالسبق في دراسة اللغة ميدانيا ــ إذا صح التعبير ــ من أفواه أصحابها ليحيط عالم اللغة بكل أوضاع " المسرح اللغوي " الذي يجري فيه الكلام، ما ظهر من القول، أو دل من الإشارة ...

ولكنه ــ على عادته ــ لا يطمئن له بال حتى يقلب الأمر على جميع وجوهه، ويضع معانيه في الكف، فهو مع دعوته تلك يقر بأن علماء اللغة العربية كانوا مدركين لتلك الأحوال والظروف التي تحدثت فيها العرب، ولذلك لم يتقولوا عليهم ما لم يقولوه، أو ينسبوا إليهم ما لم يرموا إليه، فكتب يقول : " **والذي يدل على أنهم قد أحسوا ما أحسسنا، وأرادوا وقصدوا ما نسبنا إليهم من إرادة وقصد شيئان : أحدهما حاضر معنا، والآخر غائب عنا، إلا أنه مع أدنى تأمل في حكم الحاضر معنا، فالغائب ما كانت الجماعة من علمائنا تشاهده من أحوال العرب ووجوهها، وتضطر إلى معرفته من أغراضها**

وقصودها من استخفافها شيئا أو استثقاله، وتقبله أو إنكاره، والأنس به، والاستيحاش منه، والرضا به، أو التعجب من قائله، وغير ذلك من الأحوال الشاهدة بالقصود، والحائفة على ما في النفوس "[25]

وواضح من هذا القول، أن ابن جني كان يؤصل لأسس نظرية سياق الحال بمختلف أبعادها، وكما عرفتها أشهر النظريات في هذا المجال، إذ نراه يؤكد على أهميتها ــ في معظم دراساته اللغوية ــ لما فيها من قوة الدلالة، لكونها تضع الكلام في بيئته الحية، وتخضعه للسماع والمعاينة .

ونظرا لأهمية اللغة المنطوقة لكونها تفصح عن الكثير من المعاني التي تبقى اللغة المكتوبة عاجزة حيالها، نجد أن ابن جني كان على وعي بظاهرة التنغيم في اللغة العربية ودورها الهام في تحديد دلالات الكلام، فقد فطن ــ قبل اللسانيين المحدثين بمئات السنين ــ إلى كل من ظاهرتي النبر والتنغيم كقيمة صوتية لها تأثير فعال على تحديد الدلالة وإبراز التباين الدلالي على المستويين التركيبي والصرفي، وذلك بقوله :" **وقد حذفت الصفة ودلت الحال عليها وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب**[26] **من قولهم : سير عليه ليل، وهم يريدون ليل طويل، وكأن هذا إنما حذفت فيه الصفة لما دل من الحال على موضعها، وذلك أنك تحس في كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم مل يقوم مقام قوله : طويل، أو نحو ذلك وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملته، وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه تقول : كان والله رجلا ، فتزيد في قوة اللفظ (والله) هذه الكلمة، وتتمكن في تمطيط اللام وإطالة الصوت بها وعليها، أي رجلا فاضلا أو شجاعا أو كريما، أو نحو ذلك، وكذلك تقول : سألناه فوجدناه إنسانا، وتمكن الصوت بإنسان وتفخمه، فتستغني بذلك عن وصفه بقولك : إنسانا سمحا أو جوادا أو نحو ذلك، وكذلك إذا ذممته ووصفته بالضيق قلت : سألناه وكان إنسانا وتزوي وجهك وتقطبه فيغني ذلك عن قولك : إنسانا لئيما أو لحزا أو مبخلا ونحو ذلك** "[27] .

إن مصطلحات " **التطويح والتطريح والتمطيط)** التي استعملها ابن جني في قوله السابق، تشير إلى رفع درجة الصوت بالتنغيم، كما نجده أيضا يفطن إلى أهمية التعبير

الجسمي الذي يتجلى لنا في اللجوء إلى الاستعانة بإشارات الوجه والفم ،إلى جانب التعبير الصوتي، بقوله : " **وتزوي وجهك وتقطبه** " .

إن ما ذهب إليه ابن جني في القرن الرابع الهجري نجده يتأكد عند معظم اللسانيين المحدثين، فها هو الدكتور تمام حسان ــ من اللسانيين المحدثين ــ يقترب من كلام ابن جني أثناء شرحه لظاهرة التنغيم، إذ يقول: " **... يحدث أحيانا أن يستعمل المتكلم النغمة على صورة تقوي من العلاقة بين إحدى كلمات السياق وبين معناها الذي سيقت له، فإذا قال بلاد بعيدة عبر عن شدة البعد بمد الياء مدا طويلا، وكذلك الفتحة التي بعدها من كلمة بعيدة، ونطق الياء والفتحة على نغمة واحدة مسطحة عالية نوعا ما، وإذا أراد أن يقول أنه قذف حجرا إلى أعلى فوصل إلى علو شاهق فلربما منح ذلك التنغيم نفسه لكلمة (فوق) فمد حرف المد منها بصورة ملحوظة ورفع الصوت به، وهذه الظاهرة يستغلها ملحنو الأغاني كثيرا وإذا أراد التعبير عن التراوح بين مكانين بقوله " رايح جاي " أعطى كلا من الكلمتين نغمة خاصة كأن يجعل نغمة رايح أعلى من نغمة جاي ثم يكرر الكلمتين كلا منهما بنغمتها مقويا معنى تكرا الرواح والمجيء بهذا النوع من التنغيم ...**"[28]

مما تقدم تتضح لنا كيفية الرد على أولئك القائلين بأن اللغويين العرب قد أهملوا وظيفة التنغيم في التركيب النحوي، نتيجة اعتمادهم على اللغة المكتوبة؛ إذ يرى بعض المحدثين أن التنغيم في التراث اللغوي " **غير منصوص عليه ولا أثر لإشارة مباشرة إليه** "[29]، إن القراءة المنصفة، والتعمق الجاد والمتفحص للجانب الإبداعي من تراثنا اللغوي من شأنها أن تبعد الباحثين المحدثين عن إطلاق أحكام سريعة، تلحق الحيف بجهود لغوييننا الأوائل، هذه الأحكام التي مصدرها الانبهار ببريق المنهج الوصفي الغربي مما حجب عن أبصارهم رؤية حقيقة المنهج الوصفي عند علمائنا العرب، الذين سبقوا الغربيين إلى الاهتداء إليه بقرون كثيرة[30] .

3ــ الاستقراء : يعد الاستقراء طريقا من الطرق الأساسية التي يتخذها المنهج الوصفي مسلكا لدراسة اللغة، إذ يرى اللسانيون العرب أن المرحلة الأولى من مراحل

الوصف هي مرحلة ملاحظة الظواهر اللغوية[31] . وسبيل الملاحظة **الاستقراء**[32]، الذي يستلزم جمع المادة المزمع دراستها واستقراؤها في ظروف معينة .

والاستقراء نوعان : الاستقراء التام الذي يعني **(العد والإحصاء)**[33]، ويختلف عن هذا النوع الاستقراء الناقص، وهو عند الدكتور تمام حسان " **إجراء الملاحظة على نموذج مختار من جملة الظواهر المدروسة التي لا حصر لها والاكتفاء بالقليل من الكثير** "[34].

ويرى أن العلم المضبوط، إنما يعتمد هذا النوع من الاستقراء، لا النوع الأول.

والواقع أن الاستقراء كان منهجا وصفيا عاما عند اللغويين الأوائل يستعينون به في تتبعهم كلام العرب، وكون عندهم تجربة علمية رائدة، لأن وظيفته " **لم يفهمها على حقيقتها أحد مثلما فهمها وطبقها سلفنا الصالح من علمائنا الأوليين** "[35] . ولم يشذ ابن جني عن القاعدة، وحذا حذو علماء اللغة الأوائل في إتباعهم الاستقراء منهجا لكونه يجعل اللغة ذات مساس بالحقيقة ،فقد استطاع عن طريق استقراء كلام العرب وتتبع جزئياته أن يتوصل إلى قواعد كلية كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال، أن كلام العرب المنقول يقسم إلى أربعة أضرب هي : مطرد في القياس والاستعمال، مطرد في القياس شاذ في الاستعمال، مطرد في الاستعمال شاذ في القياس، شاذ في القياس والاستعمال.

أ ــ **المطرد في القياس والاستعمال :** هو ما كثر استعماله في لغة العرب على الأصل العام في بابه، أي وفق القاعدة العامة التي تنتظم بابه، وحكمه في الاستعمال كما يقول ابن جني " **هذا هو الغاية المطلوبة، والمثابة المنوبة، ونحو ذلك : قام زيد، وضربت عمرا، ومررت بسعيد** "[36]. ويؤكد هذه المقولة في موضع آخر بقوله : " **وإذا فشا الشيء في الاستعمال، وقوي في القياس، فذلك ما لا غاية وراءه، نحو منقاد اللغة من النصب بحروف النصب، والجر بحروف الجر، والجزم بحروف الجزم، وغير ذلك مما هو فاش في الاستعمال قوي في القياس** "[37].

ب ــ المطرد في القياس الشاذ في الاستعمال : وهو ما لم تتكلم به العرب مع أنه قياس، أي جاء على الأصل في بابه، وذلك نحو من يذر ويدع، أو ورد عنهم لكن استعماله محدود غيره أكثر منه، نحو استخدامهم اسم الفاعل (مبقل) والشائع في الاستعمال (باقل) (بحذف الزيادة) وورود خبر (عسى) اسما صريحا، والشائع في الاستعمال ورود

خبر (عسى) مصدرا مؤولا، يقول ابن جني: " **وكذلك قولهم مكان مبقل ــ هذا هو القياس ــ والأكثر في السماع باقل** "[38] **والأول مسموع أيضا، قال أبو دواد لابنه دواد " يابني ماأعاشك بعدي ؟ فقال :**

أعاشني بعدك واد مبقل آكل من حوذاته وأنسل

وقد حكى أيضا أبو زيد في كتاب (حيلة ومحالة) : مكان مبقل . ومما يقوى في القياس، ويضعف في الاستعمال مفعول عسى اسما صريحا، نحو قولك : عسى زيد قائما أو قياما، هذا هو القياس، غير أن السماع ورد بحظره، والاقتصار على ترك استعمال الاسم ههنا، وذلك قولهم : عسى زيد أن يقوم، و(عسى الله أن يأتي بالفتح)، وقد أنشدنا أبو علي: أكثرت في العذل ملحا دائما * لا تعذلا إني عسيت صائما**

ومنه المثل السائر : عسى الغوير أبؤسا "[39]

ج ــ المطرد في الاستعمال الشاذ في القياس: وهو ما استعملته العرب خارجا عن بابه، مخالفا للأصل العام المجرد من استقراء لغتهم، واطراد استعماله، وذلك نحو " **قولهم : أخوص الرمث، واستصوبت الأمر . أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسن عن أحمد بن يحي قال : يقال : استصوبت الشيء، ولا يقال : استصبت الشيء . ومنه استحوذ، وأغيلت المرأة، واستنوق الجمل، واستتيست الشاة، وقول زهير :**

هنالك إن يستخولوا المال يخولوا ومنه استفيل الجمل، قال أبو النجم : يدير عيني مصعب مستفيل "[40]

فالأصل في أفعل واستفعل المعتل العين بالواو أو الياء، إعلال عينه، يقول أبو الفتح : "**فإن استنوق واستتيس شاذ، ألا تراك لو تكلفت أن تأتي باستفعل من الطود، لما قلت:استطود، ولا من الحوت:استحوت،ولا من الخوط: استخوط، ولكن القياس أن تقول: استطاد، واستحات، واستخاط** "[41]

د ــ الشاذ في الاستعمال والقياس : وهو ما خالف الأصل، وندر استعماله " **كتميم مفعول، فيما عينه واو، نحو : ثوب مصوون، ومسك مدووف. وحكى البغداديون: فرس مقوود، ورجل معوود من مرضه. وكل ذلك شاذ في القياس والاستعمال . فلا**

يسوغ القياس عليه، ولا رد غيره إليه . ولا يحسن أيضا استعماله فيما استعملته فيه إلا على وجه الحكاية "[42] .

4 ــ التمييز بين اللغة والكلام : إن علم اللغة اللغة الوصفي يميز في منهجه بين اللغة والكلام، فإذا كانت اللغة مظهرا اجتماعيا غير مقصود، فإن الكلام عمل فردي مقصود .

فاللغة يكتسب وجودها الفعلي من خلال الكلام الذي هو " **نشاط يجري على شروط اللغة** "[43] . فإذا كان فرديناند دو سوسير (1957 ــ 1913م) قد استعمل مصطلحات تمييزية في الدرس اللغوي، عرض بوساطتها ثلاثة مفاهيم، فمصطلح يعبر به عن الإنجاز الفردي من اللغة وهو (**الكلام Parole**)، ومصطلح يعبر به عن صور الكلام المخزونة في أدمغة أفراد المجتمع وهو (**اللغةLangue**)، ومصطلح ثالث يعبر به عما يمكن أن ينضوي تحته الكلام واللغة جميعا وجميع العوامل المؤدية إلى إنتاج الكلام وهو (**الكينونة اللغوية Langage**) . وهو بصنيعه هذا يكون " **قد فرق تفريقا واضحا بين اللغة كنظام أو مجموعة من القواعد والمعايير المستقرة بصورة تجريدية في ذهن الجماعة أو في المعاجم وكتب النحو واللغة، والكلام الذي يعتبر التحقيق العيني لهذه القواعد والمعايير بصورة مادية، والكلام على ذلك سلوك فردي، واللغة تمثل نظام وقواعد هذا السلوك، ونلاحظ أن الأفراد يختلفون في انتقاء عناصر هذا النظام ..**"[44] فإن أبا الفتح يستعمل كذلك ثلاثة مصطلحات تمييزية في الدرس اللغوي هي : **القول، والكلام، واللغة** .

أ ــ اللغة : يعرف ابن جني اللغة بقوله : "**أما حدها: فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم** "[45]. وعلى الرغم من هذا التعريف الموجز للغة، إلا أنه يفي بالمعنى، فهو يتضمن معظم الجوانب الأساسية لمفهوم اللغة التي عرض لها اللسانيون المحدثون بالشرح والدراسة، ويتضح لنا ذلك عند تجزئة هذا التعريف إلى عناصره الأساسية التي تتمثل في :

- **الطبيعة الصوتية للغة**، من حيث كونها أصواتا.
- **الوظيفة اللغوية**، من حيث كونها تعبيرا.
- **الوظيفة الاجتماعية للغة**، من حيث كونها ترتبط بالجماعة اللغوية التي تتكلمها.

– **الطابع العقلي للغة**، من حيث كونها ترتبط ارتباطا وثيقا بالفكر.

فذكر القوم للدلالة على اجتماعية اللغة، فاللغة عنده إذن ظاهرة اجتماعية لا تكون إلا في قوم. والتعبير عن الأغراض، دليل التواصل، لأن مستعمل اللغة لا يلقي الكلمات على أنها أصوات لا فائدة منها، وإنما لابد أن يكون للمتكلم غاية من كلامه، كي يتم نقل الفكرة من دماغه إلى دماغ المستمع.

وذكر الأصوات تصريح بماهية الدوال التي كانت وسيلة تواصل بين هؤلاء القوم، ولا شك في أن هذه الأصوات الدالة كانت مصطلحا عليها قبل أن تخزن صورها في أذهان أفراد المجتمع، ثم لما دعت الحاجة إلى استعمالها تحولت من صور صوتية في الذهن إلى أصوات لغوية صادرة عن جهاز النطق الإنساني "[46] .

وبهذا التعريف، يكون ابن جني قد درس اللغة باعتبارها لغة منطوقة ،دائرة على الألسنة، لا مدونة في بطون الكتب، وذلك لأن اللغة المكتوبة مهما بلغت من الرقي والدقة، تبقى عاجزة عن تمثيل الجانب المنطوق منها تمثيلا صادقا .

ب ــ الكلام : لقد أشار ابن جني في كتابه " الخصائص " إلى مفهوم مصطلح الكلام، لمفهوم هذا، المصطلح بقوله : " **وأما الكلام لكل لفظ مستقل بنفسه، مفيد لمعناه، وهو الذي يسميه النحاة: الجمل، نحو: زيد أخوك، وقام محمد، وضرب سعيد** "[47] . كما يقول في موضع آخر : " **إن الكلام إنما هو في لغة العرب عبارة عن الألفاظ القائمة برؤوسها، المستغنية عن غيرها، وهي التي يسميها أهل هذه الصناعة الجمل على اختلاف تركيبها** "[48] .

ولتوضيح مفهوم مصطلح " الكلام " أكثر، نراه يعقد بابا خاصا يفرق فيه بين الكلام والقول تحت عنوان: **هذا باب القول على الفصل بين الكلام والقول**، ومما قال في ذلك: " **أما الكلام فكل لفظ مستقل بنفسه، مفيد لمعناه. وهو الذي يسميه النحويون الجمل، نحو زيد أخوك، وقام محمد، وضرب سعيد، وفي الدار أبوك، وصه، ومه ... فكل لفظ استقل بنفسه وجنيت منه ثمرة معناه فهو كلام**"[49]، ثم يقول :" **وأما القول فأصله أنه كل لفظ مذل به اللسان، تاما كان أو ناقصا، فالتام هو المفيد، أعني الجملة وما كان في معناها من نحو : صه، وإيه، والناقص ما كان بضد ذلك، نحو : زيد،**

محمد، وإن، وكان أخوك، إذا كانت الزمانية لا الحدثية (يعني كان الناقصة لا التامة)"[50] .

" فكل كلام قول، وليس كل قول كلاما. هذا أصله، ثم يتسع فيه فيوضع القول على الاعتقادات والآراء، وذلك نحو قولك: يقول بقول أبي حنيفة، ويذهب إلى قول مالك، ونحو ذلك، أي يعتقد كما كانا يريانه، ويقولان به، لا أنه يحكي لفظهما عينه من غير تغيير لشيء من حروفه "[51].

" ومن أدل الدليل على الفرق بين الكلام والقول إجماع الناس على أن يقولوا: القرآن كلام الله، ولا يقال القرآن قول الله، وذلك أن هذا موضع ضيق متحجر، لا يمكن تحريفه، ولا يسوغ تبديل شيء من حروفه. معبر لذلك عنه بالكلام الذي لا يكون إلا أصواتا تامة مفيدة، وعدل به عن القول الذي قد يكون أصواتا غير مفيدة، وآراء معتقدة.

قال سيبويه : " واعلم أن (قلت) في كلام العرب إنما وقعت على أن يحكى بها، وإنما يحكى بعد القول ما كان كلاما لا قولا "[52].

ففرق بين الكلام والقول كم ترى ... فالكلام عنده ما كان من الألفاظ قائما برأسه، مستقلا بمعناه، وأن القول عنده بخلاف ذلك، إذ لو كانت حال القول عنده كحال الكلام لما قدم الفصل بينهما، ولما أراك فيه أن الكلام هو الجمل المستقلة بنفسها، الغانية عن غيرها، وأن القول لا يستحق هذه الصفة، من حيث كانت الكلمة الواحدة قولا، وإن لم تكن كلاما، ومن حيث كان الاعتقاد والرأي قولا، وإن لم يكن كلاما .

4 ــ شمولية الدراسة اللغوية : لقد درس ابن جني اللغة دراسة شاملة، إذ عرض لمختلف مستوياتها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، شأنه في ذلك شأن الدراسات اللسانية الحديثة التي وظفت المنهج الوصفي في دراستها .

1 ــ المستوى الصوتي : لقد أولى ابن جني اهتماما كبيرا للجانب الصوتي للغة، حتى ذهب به الأمر إلى إفراد عمل كامل من أعماله لدراسة الأصوات، ونعني به كتابه **(سر صناعة الإعراب).** حيث عالج الأصوات معالجة **فونتيكية(PHONETICS)** معزولة عن النظام اللغوي، فعرض للجهاز الصوتي وكيفية إنتاج الصوت اللغوي، ومخارج الأصوات

وصفاتها وتصنيفها، كما عالجها معلجة فونولوجية (**PHONOLOGY**) داخل النظام اللغوي للوقوف على وظائفها، فعرض للفونيم والنبر والتنغيم وغيرها من الظواهر الصوتية التي لها تأثير على المعنى . ومن الظواهر الصوتية التي عالجها ابن جني في كتابه الخصائص نذكر على سبيل المثال لا الحصر ما يلي :

أ ــ التمييز بين الحركات القصيرة والحركات الطويلة: يميز ابن جني تمييزا واضحا بين هذين النوعين من الحركات بقوله : "**... وسبب ذلك أن الحركة حرف صغير، ألا ترى أن من متقدمي القوم من كان يسمي الضمة الواو الصغيرة، والكسرة الياء الصغيرة، والفتحة الألف الصغيرة . ويؤكد ذلك عندك أنك متى أشبعت ومطلت الحركة أنشأت بعدها حرفا من جنسها** "[53] . فهو بقوله هذا يجعل ما أطلق عليه القدماء حروف اللين أو حروف المد حركات لا تختلف عن الحركات القصيرة إلا في الطول أو في كمية الصوت **Duration**[54] .

ب ــ المماثلة ASSMILATION : يعني مصطلح المماثلة تأثر صوت بآخر نتيجة مجاورته له تأثرا يؤدي إلى التقارب في الصفة أو في المخرج تسهيلا لعملية النطق، واقتصادا للجهد العضلي لتحقيق الانسجام الصوتي . وهذا ما فطن إليه ابن جني عندما تحدث عن هذه الظاهرة واستعمل مصطلح (التقريب)، إذ يقول : " **ومنه تقريب الحرف من الحرف نحو قولهم في مصدر : مزدر، وفي التصدير : التزدير، وعليه قول العرب في المثل : (لم يحرم من فزد له) أصله : فصد، ثم أسكنت العين على قولهم ضرب : ضرب ... فصار تقديره فصد له، فلما سكنت الصاد فضعفت به وجاورت الصاد ــ وهي مهموسة ــ الدال، وهي مجهورة، قربت منها بأن أشمت شيئا من لفظ الزاي المقاربة للدال بالجهر** "[55]. إلى غير ذلك من الظاهر الصوتية الفونتيكية ز الفونولوجية المتناثرة هنا وهناك في ثنايا كتابه الخصائص .

2 ــ المستوى الصرفي والنحوي: لقد تم جمع المستوى الصرفي والنحوي هنا تحت عنوان واحد لكونهاــ في منظور ــ ابن جني، ومن سبقه من اللغويين، صنوان لا ينفصلان عن بعضهما، يقول ابن جني : " **فالتصريف إنما هو لمعرفة أنفس الكلم الثابتة، والنحو إنما هو لمعرفة أحواله المتنقلة، ألا ترى أنك إذا قلت : قام بكر، ورأيت بكرا،**

ومررت ببكر، فإنك إنما خالفت بين حركات حروف الإعراب لاختلاف العامل، ولم تعرض لباقي الكلمة، وإذا كان ذلك كذلك فقد كان من الواجب على من أراد معرفة النحو أن يبدأ بمعرفة التصريف، لأن معرفة ذات الشيء الثابتة ينبغي أن يكون أصلا لمعرفة حاله المتنقلة، إلا أن هذا الضرب من العلم لما كان عويصا صعبا بدئ قبله بمعرفة النحو، ثم جيء به، بعد، ليكون الارتياض في النحو موطئا للدخول فيه، ومعينا على معرفة أغراضه ومعانيه وعلى تصرف الحال "[56].

ويعرف ابن جني النحو بقوله : " **هو انتحاء سمت كلام العرب، في تصرفه من إعراب وغيره، كالتثنية، والجمع، والتحقير، والتكسير والإضافة، والنسب والتركيب، وغير ذلك، ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة، فينطبق بها وإن لم يكن منهم، وإن شذ بعضهم عنها رد به إليها** "[57].

ومن هذا الفهم لحدود الصرف والنحو، نراه ــ في مواضع كثيرة ــ يمزج بين النظر الصرفي والنظر النحوي، نختار منها النص التالي :

" **ومن الأعلام المعلقة على المعاني ما استعمله النحويون في عباراتهم من المثل المقابل بها الممثلات نحو قولهم: (أفعل) إذا أردت به الوصف وله (فعلاء) لم تصرفه. فلا تصرف أنت (أفعل) هذه، من حيث صارت علما لهذا المثال، نحو أحمر، وأصفر، وأسود، وأبيض. فتجري (أفعل) هذا مجرى أحمد، وأصرم، علمين . وتقول: (فاعلة) لا تنصرف فاعلة، وتنصرف نكرة . فلا تصرف (فاعلة) لأنها علم لهذا الوزن، فجرت مجرى فاطمة وعاتكة. وتقول (فعلان) إذا كانت له (فعلي) فإنه لا ينصرف معرفة ولا نكرة . فلا تصرف (فعلان) هذا، لأنه علم لهذا الوزن، بمنزلة حمدان، وقحطان ... وتقول : وزن إبراهيم (فعلاليل) فتصرف هذا المثال، لأنه لا مانع له من الصرف . ألا ترى أنه ليس فيه أكثر من التعريف، والسبب الواحد لا يمنع الصرف . ولا تصرف إبراهيم للتعريف والعجمة . وكذلك وزن جبرئيل (فعلئيل) فلا تصرف جبرئيل، وتصرف مثاله . والهمزة فيه زائدة، لقولهم : جبرئيل . وتقول مثال جعفر (فعلل) فتصرفهما جميعا، لأنه ليس في كل واحد منهما أكثر من التعريف "**[58].

يلاحظ من خلال هذا النص أن أبا الفتح يجمع فيه بين (**الوحدات الصرفية**) كما تتضح من بنية الكلمة متمثلة في الأوزان أو " **المثل** " و(**الفصائل النحوية**) كما يظهر من حديثه عن " التعريف والتنكير " وعن " التذكير والتأنيث "، ثم أثر ذلك في نظم الكلام على ما يظهر من صرف الكلمة أو منعها مما يكون له تأثير في علاقة الكلمة بغيرها من كلمات الجملة ولو كان ذلك في الشعر على أقل تقدير .

ويورد أبن جني في الخصائص كلاما كثيرا يمكن أن يدرج تحت ما يسمى " **بالفصائل النحوية** " وذلك كحديثه عن التذكير والتأنيث والإفراد والتثنية والجمع، على أنه من الواضح أنه لا يعالج كل هذه المسائل كما تعالجها كتب النحو، وإنما هو يقدم أمثلة لـــ "خصائص " العربية في بعض الظواهر، وهو منهج نجده معمولا به في معظم الأعمال التي قدمها الدرس الحديث .

4 ــ المستوى الدلالي : مما هو متصل بالدراسة المعجمية ما عرض له ابن جني تحت ما أسماه " **الاشتقاق الأكبر** "، فقد كان أبو الفتح يعتقد أن اللغة ــ بأصواتها التي تمثلها الأبجدية ــ إنما تقدم احتمالات لا نهاية لها من الألفاظ التي ترمز إلى معان، ومن تم أكد أن تقلبات اللفظ الواحد تؤدي إلى معان متقاربة، اعتمادا على ما قرره من وجود علاقة بين اللفظ ومدلوله . وهذه الطريقة في محاولة الوصول إلى الاحتمالات اللغوية من لفظة واحدة هي الطريقة التي اعتمد عليها الخليل في العين واصلا منها إلى تحديد المهمل والمستعمل .

يقول أبو الفتح: " **باب في الاشتقاق الأكبر. هذا موضع لم يسمه أحد من أصحابنا، غير أن أبا علي ــ رحمه الله ــ كان يستعين به، ويخلد إليه، مع إعواز الاشتقاق الأصغر . لكنه مع هذا لم يسمه، وإنما كان يعتاده عند الضرورة، ويستروح إليه، ويتعلل به . وإنما هذا التلقيب لنا نحن وستراه فتعلم أنه لقب مستحسن . . وأما الاشتقاق الأكبر فهو أن تأخذ أصلا من الأصول الثلاثية، فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحدا، تجتمع التراكيب الستة وما يتصرف من كل واحد منها عليه، وإن تباعد شيء من ذلك عنه رد بلطف الصنعة والتأويل عنه ... من ذلك تراكيب (ق س و) (ق وس) (وقس) (و س ق) (س وق) وأهمل (س ق و) . وجميع ذلك إلى القوة**

والاجتماع . منها(القسوة) وهي شدة القلب واجتماعه، ومنها (القوس) لشدتها، واجتماع طرفيها. ومنها (الوقس) لابتداء الجرب، وذلك لأنه يجمع الجلد ويقحله، ومنها (الوسق) للحمل، وذلك لاجتماعه وشدته، ومنه استوسق الأمر أي اجتمع(والليل وما وسق) أي جمع، ومنها(السوق)، وذلك لأنه استحثاث وجمع للمسوق بعضه إلى بعض.."[59] .

من خلا ما تقدم يتضح لنا جليا أن ابن جني في كتابه " **الخصائص** " قد عرض لمستويات التحليل اللغوي، الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، شأنه في ذلك شأن المناهج اللسانية الحدية، إلا أن معالجته لهذه المستويات كانت معالجة مختلطة، تداخلت فيها تلك المستويات تداخلا شديدا ، ولا غرابة في ذلك، فاختلاط مستويات الدرس اللغوي في هذه المراحل المبكرة تعد الظاهرة الواضحة والسمة البارزة .

فابن جني إذن الذي عاش في القرن الرابع الهجري كان يوظف أسس المنهج الوصفي في أبحاثه ودراساته اللغوية ،كاعتماده على السماع والجانب المنطوق من اللغة، والاستقراء، والتصنيف والتجريد، والتمييز بين اللغة والكلام، ودراسة اللغة كما هي لا كما يجب أن تكون، وبمختلف مستوياتها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، وغيرها من الأسس التي ينبني عليها المنهج الوصفي. هذا التوظيف ــ الذي حتى وإن كان يفتقر إلى المصطلحات التي تسمي الأشياء بمسمياتها ــ

الهوامش والإحالات:

(1) ــ د/ محمد حسين آل ياسين، الدراسات اللغوية عند العرب، ص 374، 375.

(2) ــ د / رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ط3، مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1417هـ/1997م، ص 182.

(3) ــ د/ محمد علي عبد الكريم الرديني، فصول في علم اللغة العام، ط1، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1423هـ/2001م، ص 101، 102 (4) ــ أنظر : د/ تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، عالم الكتب، القاهرة، 1421هـ/2001م، ص: 166

(5) ــ أنظر : أصول التفكير النحوي، ص 22.

(6) ــ د/محمد صلاح الدين مصطفى بكر، النحو الوصفي من خلال القرآن الكريم، المطبعة الفنية ،القاهرة، 1986م، ص22 .

(7) ــ د/ نوزاد حسن أحمد، المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ليبيا، ط1، 1996م، ص 52.

(8) ــ أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، بيروت (د.ت)، 1/ص :3.

(9) ــ المصدر نفسه 1/ 3 .

(10) ــ الخصائص، 3/1.

(11) المصدر نفسه، 76/1، 242، 250.

(12) ــ Sapir / language : New York : 1921 : 15 .

(13) انظر : اللغة بين المعيارية والوصفية للدكتور تمام حسان، ص 15.

(14) ــ أنظر : البحث اللغوي وصلته بالبنيوية في اللسانيات، ص9.

(15) ــ الخصائص 3/2.

(16) ــ د/ سعيد حسن بحري، المدخل إلى مصادر اللغة العربية، ط1، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، 2001م.

(17) ــ الخصائص 2/ .

(18) ــ المصدر نفسه2 /1 .

(19)ــالدكتور محمد كامل حسين، أصول علوم اللغة، مجمع اللغة العربية، مجموعة البحوث والمحاضرات، الدورة السادسة والعشرون (59ــ 1960م)، ص 145 ــ 179م .

(20) ــ د/ حلمي خليل، دراسات في اللغة والمعاجم، ط1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1998م، ص 366.

(21) ــ الخصائص 248/1.

(22)ــ المصدر نفسه 248/1.

(23)ــ المصدر نفسه 1. 254.

(24) ــ سيبويه صاحب الكتاب.

(25) ــ الخصائص 37/2، 371 .

(26) ــ د/ تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ط4، عالم الكتب، القاهرة، 1425هــ/ 2004م، ص 310.

(27) ــ الخصائص 37/2، 371.

(28) ــ د/ تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 310.

(29) ــ د/ خليل أحمد عمايرة، في نحو اللغة وتراكيبها ــ منهج وتطبيق ــ عالم المعرفة للنشر والتوزيع، جدة، السعودية، 1404هــ 1984م، ص35 .

(30)ــ د/ نوزاد حسن أحمد، المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ليبيا، ط1، 1996م، ص 49،48.

(31)ــ د/ تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص 158.

(32)ــ المرجع نفسه، 158 .

(33)ــ ينظر : اللغة بين المعيارية والوصفية، ص 159.

(34)ــ ينظر : الأصول، ص 13.

(35)ــ د/ مصطفى مندور، اللغة بين العقل والمغامرة، مطبعة أطلس، القاهرة، الناشر : منشأة المعارف بالإسكندرية، 1974م ، ص91.

(36)ـ د/ عدنان محمد سلمان، الاستقراء في اللغة، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد 24، الجزء 3، تموز، 1983م، ص 203 .

(37)ـ الخصائص، 97/1.

(38)ـ المصدر نفسه، 26/1.

(39)ـ المصدر نفسه، 1/ 97.

(40)ـ المصدر نفسه، 99/1، 100 .

(41)ـ المصدر نفسه، 101/1.

(42) ـ المصدر نفسه، 118/1.

(43)ـ المصدر نفسه، 101/1 .

(44)ـ د/ تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص 139.

(45) ـ د/ حسام سعيد النعيمي، ابن جني عالم العربية، ط1، هيئة كتابة التاريخ، أعلام الفكر العربي، بغداد، العراق، عام 1990م، ص 147، 148.

(46) ـ أنظر : الخصائص، 17/1.

(47) ـــ د/ كريم زكي حسام الدين، أصول تراثية في اللسانيات الحديثة، ص 37.

(48) ـ الخصائص 31/1،32.

(49) ـ المصدر نفسه 32/1.

(50) ـ المصدر نفسه 1/ 32.

(51) ـ الخصائص 43/1.

(52) ـ الخصائص 1/ 19.

(53) ـ المصدر نفسه، 315/2.

(54) ـ انظر : د/ عبده الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربية، ط1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1979م، 138.

(55) ـ الخصائص، 477/2.

(56) ـ ابن جني، المنصف في شرح كتاب التصريف للمازني، تحقيق إبراهيم مصطفى، وعبد الله أمين، القاهرة، 1954، ص 4.

(57) ـ الخصائص 1/.

(58) ـ المصدر نفسه،

(59) ـ المصدر نفسه، 2/ 133.